htm



www.st-mgalx.com



عيد الغطاس والقديس المعمدان

The Epiphany & St. John The Baptist

Jan. 1997 | يناير ١٩٩٧
1st. Print | الطبعة الأولى
Cairo | القاهرة

الكتاب : عيد الغطاس والقديس المعمدان .

المؤلف : قداسة البابا شنوده الثالث

الناشر : الكلية الإكليريكية بالكاتدرائية بالعباسية .

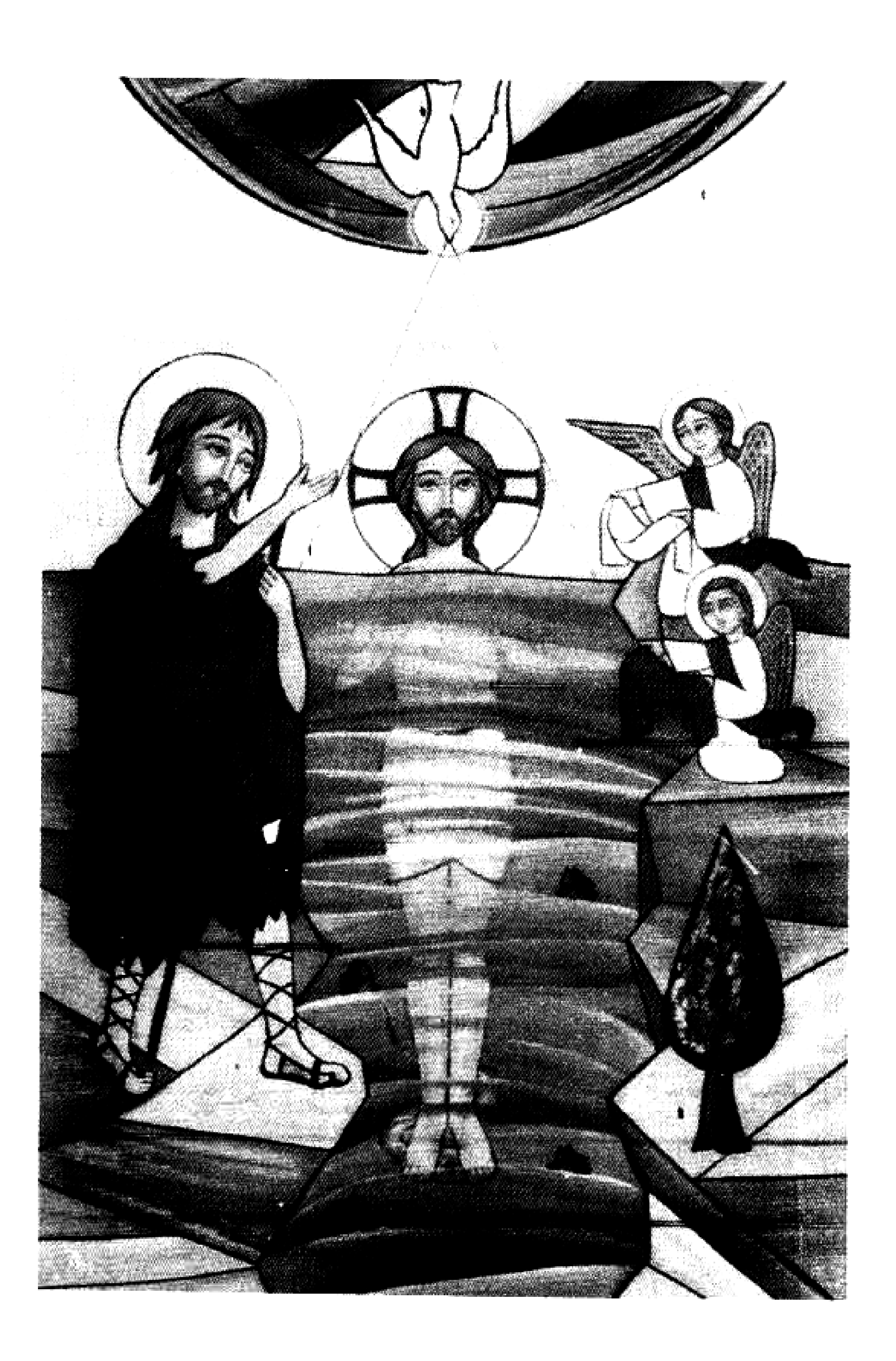
رسم الأيقونة : تاسونى سوسن

الطبعة : الأولى يناير ١٩٩٧م .

المطبعة : الأنبا رويس الأوفست العباسية .

رقم الإيداع بدار الكتب : ٩٧/٢٥٠٤

977 - 5345 - 37 - 5



تأملات في عيد الغطاس المجيد

يحمل إلينا شهر يناير عدداً من الأعياد : عيد رأس السنة، وعيد الميلاد، وعيد الختان، وعيد الغطاس .

نشكر الله إذ أعطانا بركة كل هذه الأعياد وفاعليتها فى حياتنا. وإذ نحتفل بعيد الغطاس المجيد، يسرنا أن نقف عنده قليلاً للتأمل :

إنه عيد الغطاس أو عيد العماد ...

هذا العيد يسمونه أيضاً بعيد الظهور الإلهى (الثيئوفانيا) .

إذ فيه ظهر الثالوث القدوس: الإبن يعتمد، والآب من السماء يقول "هذا هو إبني الحبيب الذى به سررت، والروح القدس يظهر على هيئة حمامة" (مت٣: ١٦، ١٧). ولذلك فإن عماد السيد المسيح يُظهر عقيدة الثالوث..

وهكذا يكون العماد دائماً باسم الثالوث .

حسب قول الرب لتلاميذه قبل صعوده "اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم، وعمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس" (مت٢٨: ١٩) . ولم يقل بأسماء، لأن الثلاثة واحد" كما ورد فى (١يو ٥: ٧) "الذين يشهدون فى السماء هم ثلاثة : الآب والكلمة والروح القدس. وهؤلاء الثلاثة هم واحد .

✠ ✠ ✠

وحسناً أن الكنيسة سمت هذا العيد بعيد الغطاس .

لأنها بذلك تذكر الشعب فيه أن السيد المسيح تعمد بالتغطيس، كما قيل إنه لما اعتمد "صعد للوقت من الماء" (مت٣: ١٥) . وتذكرهم أيضاً بأن المؤمنين فى العهد الجديد يتعمدون بالتغطيس، (وليس بالرش، كما عند بعض الطوائف) . وهكذا تعمد الخصى الحبشى فى بداية العصر الرسولى على يد فيلس "ولما صعدا من الماء، خطف روح الرب فيلبس" (أع٨: ٣٩) .

وأيضاً لأن المعمودية صبغة (باللاتينية Baptisma)، والصبغة تتم بالتغطيس. ولأن المعمودية دفن مع المسيح (كو٢: ١٢) ، والدفن يتم بالتغطيس فى القبر. ولا يمثله أبداً الرش بالماء ...

كذلك فى كل الآثار القديمة .

نجد أنه كان العماد يتم فى جرن يسمى (جرن المعمودية). وهذا

يدل على أن المعمودية كانت بالتغطيس ، وليس بالرش .

✠ ✠ ✠

ونذكر فى هذا العيد الكثير من المعانى الروحية والعقائدية، سواء بالنسبة إلى عماد السيد المسيح من يوحنا المعمدان، أو أهمية المعمودية فى الكنيسة ...

نذكر أيضاً أن السيد الرب تقدم إلى معمودية يوحنا وهو غير محتاج إليها.

إنما ليكمل كل بر، ليكون بلا لوم أمام الناس، حتى وهو غير محتاج. وهنا يضع أمامنا مبدأ الطاعة ومبدأ الإلتزام، دون أن نسأل ماذا يفيدنا ؟

وأيضاً دخل معمودية يوحنا لكى ينوب عنا، كما صام عنا، وكما صلب عنا!

كثير مما كان يفعله، كان من أجل غيره، وليس من أجل نفسه. لقد ناب عنا فى أن يقدم لله الآب صورة للإنسان الكامل، يرضى الآب بحياته، كما يرضيه بفدائه للبشرية .

✠ ✠ ✠

ونحن فى عماده : نذكر تواضعه ..

ونذكر محبته والتزامه، ورقته فى الحديث مع يوحنا، إذ يقول له (اسمح الآن) .

على أن معمودية السيد المسيح، إنما تذكرنا بمعموديتنا نحن أيضاً . وبعمق اهتمام الكنيسة بالمعمودية .

فالمعمودية هي الأولى فى أسرار الكنيسة وباب الدخول إلى باقى الأسرار .

والعامة يقولون "نصرتا فلاناً" أى عمدناه. لأنه بالعماد صار نصرانياً .. وهو تعبير سليم فى معناه اللاهوتى يذكرنا بقول السيد المسيح "من آمن واعتمد خلص" (مر ١٦: ١٦) .

لذلك يوم العماد هو يوم عيد بالنسبة إلى الطفل وأسرته .

وفى هذا اليوم تمنحه الكنيسة ثلاثة أسرار مقدسة هى المعمودية والميرون (المسحة المقدسة)، وسر التناول أيضاً. وتمهده للمشاركة فى حياة الكنيسة . ويصبح عضواً فيها، ويأخذ أول شهادة كنسية فى حياته .

وتعين الكنيسة للطفل المعمد أشبيناً يتولى رعايته روحياً، وغالباً ما تكون الأم هى أشبينة طفلها .

وتتعهد الأم أمام الله والكنيسة أن ترعى طفلها فى خوف الله، وتكون هى المعلم الأول له، تلقنه كل أمور الدين، وتدربه عليها عملياً .

✠ ✠ ✠

تواضع الـربّ فـى المعمُوديّة

معمودية يوحنا كانت معمودية التوبة . ولـم يكن السيد المسيح محتاجاً إلى توبة. فلماذا تعمد؟

تعمد نائباً عن البشرية فى الدخول إلى معمودية التوبة...

كما صام عنا، وهو غير محتاج إلى صوم .. وكمـا مـات عنـا، وهو غير مستحق للموت ...

✠ ✠ ✠

وكل ذلك ليقدم لـلآب صـورة كاملـة للبشـرية، ويدفـع ثمـن خطاياها.. كذلك هو أيضاً تقدم إلى المعمودية 'لكى يكمـل كل بـر' (مت٤: ١٥) لكى لا يبكته أحد على خطية.. لكى يكـون أمـام الكل خاضعاً للناموس، مع أنه فوق الناموس ...

وهكذا سار مع الشعب، كواحد منهم متقدمـاً إلـى معموديـة التوبة .

أى تواضع هذا، الذى يقدمه الرب لنا؟! ولما اعتفى يوحنا، وقال 'أنا المحتاج أن أعتمد منك" أجابه الرب "اسمح الآن.."

وبنفس الوضع سمح أن أمه العذراء المثاليـة فـى طهرهـا، التى ولدته من الروح القدس بغير دنس، تتقدم "لمـا تمـت أيام تطهيرهـا"

لتقدم محرقة (لو٢: ٢٢) .. وما كانت هى محتاجة إطلاقاً إلى أيام تطهير ...

✠ ✠ ✠

إن السيد المسيح ما كان خاطئاً ليتقدم إلى معمودية التوبة. لكنه كان (حامل خطايا) . حمل خطايا العالم كله .

وبهذا شهد عنه يوحنا الذى عمده (يو١: ١٩) .

لقد حمل المسيح خطايا العالم ، ونزل بها إلى المعمودية. وكذلك حمل هذه الخطايا على الصليب، ومحاها بدمه ... "كلنا كغنم ضللنا، ملنا كل واحد إلى طريقه . والرب وضع عليه إثم جميعنا" (أش٥٣: ٦) .

السيد المسيح مع أنه بار بلا خطية، وقد تحدى اليهود فيما بعد قائلاً لهم "من منكم يبكتنى على خطية" (يو٨: ٤٦) ... لكنه تمم طقس معمودية التوبة. ولم يشذ عن هذا العمل الروحي الذى تقدمت إليه الجماهير التائبة. فوجدناه يسير كما سار باقى الشعب الخاطئ متقدماً نحو معمودية التوبة .

كلهم تعمدوا معترفين بخطاياهم. أما هو فتعمد حاملاً خطايا الشعب كله .

وفعل هذا، لئلا تمسك عليه غلطة أو يحسب عليه نقص. وأيضاً

ليكمل كل بر" .

✠ ✠ ✠

بنفس التواضع أيضاً "لكي تكمل كل بر" ، سلكت والدته القديسة العذراء أيضاً .

فقد ورد في قصة دخولها به إلى الهيكل "ولما تمت أيام تطهيرها حسب شريعة موسى ليقدموه للرب .. ولكي يقدموا ذبيحة كما قيل في ناموس موسى زوج يمام أو فرخي حمام" (لو٢: ٢٢-٢٤) ....

عجيب أن تقال عن العذراء عبارة "ولما تمت أيام تطهيرها"..!! هذه التي قدّس الروح القدس مستودعها أثناء الحبل المقدس. فحلبت به بلا دنس الخطية الأصلية .. وما كانت تحتاج مطلقاً إلى تطهير.. ولكنها – لكي تكمل كل بر – خضعت لوصية الناموس، وهي غير محتاجة إلى ذلك .

حقاً هناك أمور لا يكون الإنسان ملزماً أن يعملها، ولكنه يفعل ذلك : لكي لا يعثر الآخرين، ولكي يكمل كل بر ..

✠ ✠ ✠

ومن تواضع الرب أيضاً ، أنه نال العماد من يوحنا .

رئيس الكهنة الأعظم ، ومانح الكهنوت ، نال المعمودية من أحد كهنته، من أحد أولاده .. من إنسان اعترف قائلاً له "أنا المحتاج أن

أعتمد منك" (مت٤: ١٤). كما اعترف قائلاً "لست مستحقاً أن أنحنى وأحل سيور حذائه ...

✠ ✠ ✠

كهنوت السيد المسيح ملكى صادقى، وملكوت يوحنا هارونى .

والمعروف أن كهنوت ملكى صادق أعظم من كهنوت هارون، كما شرح معلمنا القديس بولس الرسول فى (عب٧) . كما أن ملكى صادق بارك أبانا ابراهيم، الذى كان هارون فى صلبه (عب٧). ومع ذلك بكل تواضع تقدم الذى هو كاهن إلى الأبد على طقس ملكى صادق (مز ١١٠: ٤) لينال المعمودية من أحد أولاد هارون !

وفى هذا أيضاً توقير منه للكهنوت فى عصره .

كما حدث حينما شفى الرجل الأبرص، أن قال له "اذهب أرِ نفسك للكاهن، وقدم القربان الذى أمر به موسى شهادة لهم" (مت٨: ٤) .

✠ ✠ ✠

حقاً إن قصة العماد مملوءة بأمثلة عديدة من التواضع .

من تواضع الرب أيضاً ، أنه بعد كل الأمجاد التى ظهرت أثناء عماده، فى شهادةالآب، وحلول الروح القدس، وشهادة يوحنا ... بعد كل هذا صعد إلى الجبل . ليجرب من الشيطان ، وسمح للشيطان أن يجربه، بكل جرأة ، أو على الأصح بكل كبرياء ...

وردّ عليه الرب بكل هدوء . وبتواضعه قهر كبرياء الشيطان ...

✠ ✠ ✠

ومن تواضع الرب أنه خضع للناموس في السن كما في العماد.

✠ ✠ ✠

أنتظر حتى بلغ سن الثلاثين حسب الناموس، وما كان أسهل عليه أن يبدأ قبل ذلك بسنوات طويلة، وهو الذى فى سن الثانية عشرة أذهل الشيوخ المعلمين، فبهتوا ممن فهمه وأجوبته (لو٢: ٤٧)... ولكنه أنتظر إلى سن الثلاثين، وأنتظر حتى أعتمد، وحتى قضى فترة خلوة على الجبل.. ثم بدأ العمل ...

تواضع المسيح منذ بدء رسالته ، ليرد على خطية آدم الأول .

آدم الأول استجاب للإغراء في أن يصير مثل الله (تك٣: ٥). وهذا لون من الكبرياء بلا شك. فجاء السيد المسيح ابن الله، فى شبه الناس، في صورة عبد (في٢: ٧) يسلك فى إتضاع، فى مولده فى مزود يمثل الفقر. (لو٢: ٧). وكذلك فى عماده من عبده يوحنا المحتاج أن يعتمد منه ...

✠ ✠ ✠

ويوحنا المعمدان الذى عمده كان متواضعاً ...

على الرغم من أنه كان عظيماً. وقد شهد له الرب نفسه

بالعظمة، وشهد له ملاك الرب أيضاً، كما سنرى .

عظمة المعمدان

كثيرون شهد لهم الناس بالعظمة وكانت شهادات زائفة وخاطئة أو جاهلة أو متملقة ...

أما يوحنا المعمدان فإن الذى شهد له بالعظمة هو الله وملاكه .

قال عنه ملاك الرب الذى بشر أباه زكريا بميلاده "ويكون عظيماً أمام الرب" (لو ١: ١٥) .

عجيبة هذه العبارة جداً "أن يكون عظيماً أمام الرب"، الذى أمامه يقف كل إنسان شاعراً بضآلته، كما قال أبونا ابراهيم "عزمت أن أكلّم المولى وأنا تراب ورماد" (تك١٨: ٢٧) .

عبارة "عظيماً أمام الرب" لا تعنى شعوره هو بعظمته، إنما تعنى أن الرب قد منحه عظمة لكى يقف أمامه .

وهكذا لصقت العظمة بيوحنا من قبل أن يولد بشهادة الرب .

أعمال عظيمة قيلت عن هذا النبى العظيم : منها أنه "يرد كثيرين إلى الرب إلههم" "يرد العصاة إلى فكر الأبرار" "يهيئ للرب شعباً مستعداً" "يهيئ الطريق قدام الرب" "يتقدم أمامه بروح إيليا

وقوته" . ويهيئ للرب شعباً مستعداً" (لو١: ١٦، ١٧) "وكثيرون يفرحون بولادته" ...

وفى كل ذلك نسأل الملاك الذى بشر بميلاده عن سر هذه العظمة العجيبة، فيجبنا بقوله أنه ...

✠ ✠ ✠

من بطن أمه يمتلئ من الروح القدس (لو١: ١٥) .

حقاً، هذا هو سر عظمة يوحنا . سمعنا فى الكتاب المقدس أن الروح القدس حل على كثيرين: حل روح الرب على شمشون (قض١٣: ٢٥)، وعلى شاول (١صم١٠: ١٠، ١١)، وعلى داود (١صم١٦: ١٣)، وعلى كثير من الأنبياء. ولكن لم نسمع مطلقاً عن أحد منهم أنه "من بطن أمه" قد أمتلأ من الروح القدس". نلاحظ هنا استعمال عبارة "امتلأ من الروح"، وليس مجرد حلول الروح عليه. هذا الأمر قد اختص به يوحنا المعمدان. لم يسبقه إليه أحد. ولكن لعلنا نسأل :

متى إمتلأ المعمدان بالروح القدس من بطن أمه ؟

كان ذلك فى قول الرب "ولما سمعت أليصابات سلام مريم، أرتكض الجنين فى بطنها، وإمتلأت أليصابات من الروح القدس" (لو١: ٤١) .. وصرخت أليصابات وقالت للقديسة مريم "حين صار

صوت سلامك فى أذنى، أرتكض الجنين بإبتهاج فى بطنـى" (لـو ١: ٤٤) .

فى هـذه اللحظـة، لحظـة سـلام مريـم والـدة الإلـه إمتـلأ يوحنـا بالروح القدس وهو فى بطن أمه .

بـالروح أحسّ بـالجنين الإلهـى فـى بطـن العذراء، وابتهـج بـه وكأنما ركض للقائه!! وقيل إنـه أرتكـض بابتهـاج، كمـا قـال الـرب لليهود "أبوكم ابراهيم تهلل بـأن يـرى يومـى، فـرأى وفـرح" (يـو ٨: ٥٦) . العجيب هنا أن أليصابات أحست بأن جنينها إرتكض بابتهاج فى بطنها. يمكن أن تحس جسدياً بحركة (إرتكض) .

أما عبارة (بابتهاج) فقد ظللت حائراً أمامها فترة .

حائراً أمام أمرين . أولهما ابتهاج الجنين .. مشـاعر جنيـن فـى بطن أمه! والأمر الثانى هو أن الأم تحـس بـأن حركـة جنينهـا فـى داخلها هى حركة ابتهاج !!

لاشك أنها موهبة من الروح ، إذ قيـل عـن أليصابـات فـى تلـك اللحظـة إنهـا كـانت قد "إمتـلأت مـن الـروح القـدس" (لـو ١: ٤١). وبالروح يمكن أن يوهب لها هذا الإنكشاف.. وهنا تزول حيرتى..

✠ ✠ ✠

وعظمة يوحنا المعمدان لم يشهد بها ملاك الرب فقط. إنما أكـثر

من هذا، شهد بها رب المجد ذاته حينما قال : "ماذا خرجتم لتنظروا. أقصبة تحركها الريح. لكن ماذا خرجتم لتنظروا. إنساناً لابساً ثياباً ناعمة. هوذا الذين يلبسون الثياب الناعمة هم فى بيوت الملوك. لكن ماذا خرجتم لتنظروا. أنبياً. نعم أقول لكم وأفضل من نبى. فإن هذا هو الذى كتب عنه ها أنا أرسل أمام وجهك ملاكى الذى يهيئ طريقك قدامك . **الحق أقول لكم لم يقم بين المولودين من النساء أعظم من يوحنا المعمدان**" (مت١١: ٧- ١١) .

✠ ✠ ✠

قال عنه الكتاب أيضاً إنه ملاك :

أو هو الملاك الذى يهيئ الطريق قدام الرب" (مر١: ٢) ، وشهد بهذا اللقب السيد المسيح نفسه (مت١١: ١٠) .

ووردت عنه النبوة فى سفر ملاخى النبى : "هأنذا أرسل ملاكى، فيهيئ الطريق أمامى" (ملا٣: ١) .

كان أيضاً كاهناً من بنى هارون، إبناً لزكريا الكاهن ...

✠ ✠ ✠

ولعل أعظم ما فى حياة يوحنا أنه عمد السيد المسيح له المجد

أتى إليه السيد المسيح ليعتمد منه كباقى الناس .. ومن أجل الطاعة قام يوحنا بعماد المسيح . واستحق أن يرى الروح القدس

بهيئة حمامة، وأن يسمع صوت الآب قـائلاً "هذا هو إبنـى الحبيـب الذى به سررت" (مت٣: ١٦، ١٧) وهكـذا تمتـع بالثـالوث القـدوس روحاً وحساً ...

✠ ✠ ✠

بل إن الله أرشده إليه قبل العماد :

وفى هذا يقول القديس يوحنا المعمـدان : "وأنـا لـم أكـن أعرفـه. لكن الذى أرسلنى لأعمد بالماء قـال لـى: الـذى تـرى الـروح نـازلاً ومستقراً عليه، فهذا هو الذى يعمد بالروح القـدس. وأنـا قد رأيت وشهدت أن هذا هو ابن الله" (يو١: ٢٣، ٢٤) .

✠ ✠ ✠

وتظهر عظمة يوحنا المعمدان فى أنه تمم عمله العظيم فى مدة قصيرة لعلها ستة أشهر أو أزيد قليلاً ...

هذه الستة أشـهر هـى الفرق بيـن عمـره وعمـر السـيد المسـيح جسـدياً، حسبما قـال المـلاك جبرائيل فـى تبشيره للعذراء بـالحبل المقـدس. "وهـوذا أليصابـات نسيبتك هـى أيضـاً حُبلـى بـابن فـى شيخوختها. وهذا هو الشـهر السـادس لتلـك المدعـوة عـاقراً" (لـو١: ٣٦) .

وكل من المعمدان والمسيح بدأ عمله فى نحو الثلاثين من عمره.

خدم يوحنا هذه الستة أشهر .

ولما ظهر المسيح بدأ يختفى هو . وفى هذه المدة الوجيزة استطاع هذا القديس أن يهدى كثيرين إلى التوبة، وأن يشهد بشهادة قوية للرب، وأن يمهد الطريق أمام المسيح. وقدم للعالم كله مثالاً عملياً بأن :

قوة الخدمة ليت فى طولها، وإنما فى عمقها ، وفى مدى فاعليته ومدى تأثيرها وثمرها ..

أليس عجيباً أن كثيراً من الخدام النافعين ، لا يتركهم الرب يخدمون طويلاً!! يكفى أنهم قدموا عينة ممتازة للخدمة والبر. قدموا مثالاً يحتذى به. واكتفى الرب بما قدموه، وأطلقهم بسلام .

وقد قدم يوحنا مثالاً ممتازاً للخدمة الجادة، وللروحيات العميقة، تنسم منها الله رائحة الرضى، وصرفه بسلام .

✠ ✠ ✠

وتبرز عظمة يوحنا فى أنه عاش بكماله علىالرغم من أن جيله كان مظلماً ...

كان عصراً شريراً. وكان أشر ما فيه قادته الروحيون من أمثال كهنة اليهود ورؤسائهم والكتبة والفريسيين والصدوقيين . وقد قام فيه من قبل بعض المعلمين الكذبة مثل ثوداس ويهوذا الجليلى اللذين

تكلم عنهما غمالائيل (أع٥: ٣٦، ٣٧) وقد أزاغا كثيرين .

وكان عصراً يتميز بالحرفية والبعد عن الروح. ويتصف رجال الدين فيه بالرياء والكبرياء. وعلى الرغم من وجود أضواء بسيطة مثل سمعان الشيخ وزكريا الكاهن وحنة النبية، إلا أن العصر فى مجموعه كان فاسداً، وصفه الرب بأنه "جيل فاسق وشرير" (مت١٢: ٣٩) .

ولكن القديس يوحنا لم يتأذ من فساد جيله ، بل على العكس كان بركة لجيله وسبب هداية له وتوبة .

✠ ✠ ✠

ومن عظمة يوحنا أنه كان ابن الجبال تربى على حياة الزهد والنسك ..

وعاش فى البرارى طوال عمره "إلى يوم ظهوره لإسرائيل" "ينمو ويتقوى بالروح" (لو١: ٨٠) .. عاش ناسكاً "خمراً ومسكراً لا يشرب" (لو١: ١٥) "يلبس وبر الإبل، ومنطقة من جلد على حقويه" (مر١: ٦) . ويأكل عسلاً برياً .

وفى البرية تعلم الصلاة والتأمل، وتعلم الشجاعة وعدم الخوف، وأيضاً الصلابة والإيمان. وتعلم القوة الناتجة عن الزهد ...

✠ ✠ ✠

أعده الله فى البرية ، كما أعد العذراء فى الهيكل .

فنشأ شجاعاً لا يهاب إنساناً .. يصلح أن يكون صاحب رسالة.

كان يقول الحق بكل قوة، ولا يهمه ماذا تكون النتائج ...

أخطأ هيرودس الملك . ولم يكن يجرؤ أن يوبخه أو يواجهه بالحق سوى يوحنا المعمدان . فكان الوحيد الذى قال لهيرودس: "لا يحل لك أن تأخذ إمرأة أخيك" (مت١٤: ٤) .

ألقاه هذا الملك فى السجن، فلم يهتم . إن ناسكاً مثله زهد كل شئ، لا يخاف السجن، حتى لو تعطلت خدمته، وكان فكره فى ذلك:

إن كان الله يريده أن يخدم فسيخدم. وإن كان الله لا يريد فلتكن مشيئته. المهم أن يشهد للحق .

وكان ما كان .. وقطعت رأس يوحنا المعمدان، ولكن هذا الصوت الصارخ فى البرية ظل يدوى فى أذن هيرودس، يزعج ضميره وأفكاره ونومه وصحوه. ويقول له فى كل وقت "لا يحل لك' .

✠ ✠ ✠

صوت يوحنا لم يمت بموت يوحنا .

وظل هيرودس يخاف يوحنا حتى بعد موته . فعندما وصلت إلى علمه كرازة المسيح القوية ومعجزاته، قال لغلمانه: إن هذا هو

يوحنا المعمدان قد قام من الأموات، ولذلك تعمل به القوات!!
(مت١٤: ٢) .

إن يوحنا قد عامل هيرودس كالباقين : شهد له بالحق، لأنه كان محتاجاً إلى هذه الشهادة ...

وفى توبيخه للملك، شابه إيليا النبى .

إيليا وبخ آخاب الملك على عبادته للأصنام (١مل١٨: ١٧، ١٨). وتعرض بهذا لغضب زوجته إيزابل التى هددته بالقتل (١مل ١٩: ١، ٢) . ويوحنا المعمدان وبخ هيرودس الملك، وتعرض بذلك لغضب هيروديا التى أراد الزواج بها. فتسببت فى قتله (مت١٤: ٦- ١١).

وهكذا سلك يوحنا بروح إيليا وقوته" (لو١: ١٧) .

ونادى قائلاً للناس "توبوا فقد اقترب ملكوت السموات" (مت٣: ٢) .. وكان شديداً فى رسالته، يوبخ وينتهر ويبكت وكان الناس يقبلون تبكيته بقلب مفتوح .

وفى ذلك يقول الكتاب : "لما رأى كثيرين من الفريسيين والصدوقيين يأتون إلى معموديته قال لهم يا أولاد الأفاعى من أراكم تهربون من الغضب الآتى، فاصنعوا أثماراً تليق بالتوبة. ولا تفتكروا أن تقولوا فى أنفسكم لنا إبراهيم أباً. لأنى أقول لكم إن الله

قادر أن يقيم من هـذه الحجـارة أولاداً لإبراهيم. والآن قد وضعت الفأس على أصل الشجرة، فكل شـجرة لا تصنـع ثمـراً جيـداً تُقطـع وتُلقى فى النار" (مت٣: ٧- ١٠) .

✠ ✠ ✠

أيقونـــة المعمـدان

أيقونة المعمدان هى أيقونة عماده للمسيح ..

ولكن البعض يرسم أيقونـة ليوحنـا المعمـدان كمـلاك بجنـاحين وهو يحمل رأسه على طبق فى يده .

وذلـك علـى اعتبـار قـول الكتـاب عنـه إنـه المـلاك الـذى يهيـئ الطريق قدام الرب (ملا٣: ١) (مر١: ٢) . وهـو حقـاً كذلـك . أمـا حمله رأسه بيده على طبق . فهذا حق لأن الشهداء يحملون آلامهم.

ولكن هذه أيقونة تأملية وليست أيقونة طقسية .

والمفـروض أن الأيقونـات التـى توضـع فـى الكنـائس أن تكـون أيقونات طقسية . ولذلك رفضت أن أدشن أيقونة مثل هذه فى بعض كنائس المهجر. فلماذا ؟

عظمـة يوحنـا المعمـدان ليسـت لأنـه دُعـى ملاكـاً. فكـل رعـاة الكنائس دعوا ملائكـة، كمـا أعطـى الـرب هـذا اللقـب لكـل ملائكـة الكنائس السبع فى آسيا (رؤ١: ٢٠) (رؤ٢، ٣) .

وليست عظمة يوحنا المعمدان فى أنه كان شهيداً يحمل آلامه، ففى الكنيسة عشرات الآلاف من الشهداء، بل ملايين .

✠ ✠ ✠

لكن عظمته الحقيقية، فى أنه عمد المسيح، الأمر الذى انفرد به عن باقى القديسين. ولذلك صار لقبه المعمدان .

لذلك الكنيسة المقدسة لا تسميه يوحنا الملاك، ولا يوحنا الشهيد، ولا يوحنا النبى، وإنما تسميه يوحنا المعمدان .

فالأيقونة الطقسية التى توضع له فى الكنيسة هى صورته وهو يعمد المسيح. كما أن عماده للسيد المسيح هو عيد سيدى تحتفل به الكنيسة . والآباء الكهنة يبخرون أمام أيقونة العماد هذه. ويقولون له كلما يخرجون بالبخور من الهيكل "السلام لك يا يوحنا بن زكريا، الكاهن ابن الكاهن" .

لا يوجد قديس مثله تسلم عليه الكنيسة فى كل رفع بخور عشية وباكر، وفى كل قداس .

عماده للمسيح

وكان أعظم عمل للقديس يوحنا هو عماده للسيد المسيح .

وهنا نرى موقفين عظيمين فى الإتضاع. الأول هو مجئ المسيح ليعتمد من عبده يوحنا. والثانى هو هذا النبى العظيم يقول

للسيد "أنا محتاج أن أعتمد منك، وأنت تأتى إلىّ!!" (مت٣: ١٤) .

أنا أيضاً خاطئ ، محتاج إلى معمودية التوبة .

أنا أمام هؤلاء الناس معلم، أما أمامك أنت، فأنا تلميذ .

أمامهم أنا نبى وملاك. وأما أمامك فأنا تراب ورماد.

أنا أمامهم كاهن، وأما أنت فمصدر كهنوتى وكل كهنوت .

✠ ✠ ✠

إن كل العظمة التى أحاطت بيوحنا، وكل الشعبية الجبارة التى كانت له ، لم تنسه ضآلة ذاته أمام المسيح ...

لقد فعل كأمه أليصابات حينما قالت للعذراء "من أين لى هذا، أن تأتى أم ربى إلىّ" .

✠ ✠ ✠

قال يوحنا للرب "أنا محتاج أن أعتمد منك" . ولم يقل له الرب إنه غير محتاج، بل قال "اسمح الآن، وهى عبارة عجيبة تخرج من فم الرب موجهة إلى واحد من خدامه .

إنه فى رقة ولطف، يقول له : لست آمرك ، إنما أطلب سماحك، أطلب موافقتك .. لكى نكمل كل بر ...

✠ ✠ ✠

لا أنـــا

ونجح المعمدان في خدمته "خرج إليه أورشليم وكل اليهودية وجميع الكورة المحيطة بالأردن. واعتمدوا منه في الأردن معترفين بخطاياهم" (مت٣: ٦) .

طبعاً الوحيد الذي لم يعترف بخطايا حينما تقدم إلى العماد، كان هو المسيح. إذ لم تكن له خطايا مطلقاً لكي يعترف بها .

ولما رأى يوحنا الجموع قد كثرت حوله، حول أنظارهم منه إلى المسيح . وهو يعني (لا أنا) .

بذل كل جهده لكي يختفي هو، ويظهر المسيح . ولعل هذه هي أبرز فضائل هذا القديس وأعمق أعماله .

كان يقول للناس "أنا أعمدكم بماء للتوبة، ولكن الذي يأتي بعدي.. سيعمدكم بالروح القدس ونار" (متى٣: ١١) .

✠ ✠ ✠

وكما كان يجذبهم إلى معمودية أخرى أفضل من معموديته، كان يجذبهم بالأكثر إلى صاحب تلك المعمودية .

قائلاً إنه أقوى منه وأعلى وأقدم .

فقال "يأتي بعدي من هو أقوى مني، الذي لست أنا أهلاً أن أنحني وأحل سيور حذائه" (مر١: ٧). "يأتي بعدي رجل صار

قدامى، لأنه كان قبلى" (يو ١: ٣٠). "لست أنا المسيح، بل إنى مرسل أمامه" (يو ٣: ٢٨) .

ولم يقل المعمدان هذا كله كمجرد كلام إتضاع .

أى أن يهبط بمستوى ذاته أمام الناس ..

فالإتضاع الحقيقى - كما يقول القديسون - هو أن يعرف الإنسان ذاته. ويوحنا المعمدان فى كلامه المتضع، كان يعرف تماماً من هو؟ ومن هو المسيح؟ وكان يتكلم عن صدق وعن اقتناع ...

كان "أعظم من ولدتهم النساء" . ولكنه هو، وكل من ولدتهم النساء، هم جميعهم أمام المسيح مجرد خدام، حتى الملائكة ... كما يقول الرسول "وأيضاً متى أدخل البكر إلى العالم ، يقول : ولتسجد له كل ملائكة الله" (عب ١: ٦) .

✠ ✠ ✠

لم يبحث هذا القديس عن مجد ذاته إنما عن ملكوت المسيح .

كان يدرك أنه ليس هو النور، إنما ليشهد للنور (يو ١: ٨) ليؤمن الكل بواسطته. كان يعرف أنه مجرد سابق أمام موكب الملك الآتى، كل عمله أن يعد الطريق للملك .

واستطاع يوحنا أن يحفظ طقسه ، ولا يتجاوز حدوده .

✠ ✠ ✠

كانت الذاتية ميتة عنده ، وكان المسيح هو الكل فى الكل .

إنه درس للخدام الذين يبنون ذواتهم على حساب الخدمة، أو يتخذون الخدمة مجرد مجال لإظهار ذواتهم !!

أروع كلمة تعبر عن خدمة يوحنا، هى قوله عن المسيح "ينبغى أن ذاك يزيد، وأنى أنا أنقص" (يو٣: ٣٠). وقال عنه أيضاً "الذى يأتى من فوق، هو فوق الجميع.. الذى يأتى من السماء هو فوق الجميع" (يو٣: ٣١، ٣٢) . مشيراً بذلك إلى لاهوت السيد المسيح، لأنه أتى من السماء من فوق، لذا هو فوق الجميع، بما فيهم يوحنا أيضاً ...

لذلك عندما بدأت كرازة المسيح ، وأخذت تكتسح جو الخدمة، ابتهج يوحنا وفرح (يو٣: ٢٩) .

وقال : فرحى قد كمل "من له العروس، فهو العريس" أما أنا فمجرد صديق للعريس، أنظر من بعيد وأفرح .

وهكذا سلم العروس للعريس .

سلمه الكنيسة التى أعدها له بالتوبة، وسلمه تلاميذه أيضاً، وأنسحب من الميدان فرحاً، مسلماً القيادة للرب .

على أن يوحنا فيما كان يتضع ، كان يرتفع .

حسب قول السيد المسيح "من يرفع نفسه يتضع، ومن وضع نفسه يرتفع" (مت٢٣: ١٢) . وإذ وضع يوحنا نفسه، وقال "ينبغى

أنى أنا أنقص" . لذلك رفعه الرب ، وجعله أعظم من ولدته النساء"...

طبعاً يقصد أعظم من ولدته النساء (من الرجال) أو (من الأنبياء). لأن القديسة العذراء بلاشك هى أعظم منه. وهى ممن ولدتهم النساء ...

✠ ✠ ✠

نحن في عيد الغطاس أيضاً ، نذكر معموديتنا نحن :

مَعموديتنا نحن

معموديتنا هى غير معمودية يوحنا .

ليست هى مجرد معمودية للتوبة . نلاحظ أنه لما كرز القديس بولس الرسول فى أفسس، سأل التلاميذ فيها 'بماذا اعتمدتم؟ فقالوا بمعمودية يوحنا. فقال لهم إن يوحنا عمد بمعمودية التوبة قائلاً للشعب أن يؤمنوا بالذى يأتى بعده أى بالمسيح يسوع. فلما سمعوا اعتمدوا باسم الرب يسوع' (أع١٩: ٣- ٥) .

معموديتنا هى ميلاد من الماء والروح .

كما قال الرب يسوع لنيقوديموس 'إن كان أحد لا يولد من الماء والروح، لا يقدر أن يدخل ملكوت الله' (يو٣: ٥) . ويقول عنها القديس بولس الرسول '..بل بمقتضى رحمته خلصنا بغسل الميلاد

الثانى وتجديد الروح القدس' (تى٣: ٥) .

ومعموديتنا هى موت وقيامة مع المسيح .

كما يقول الرسول إلى إهل كولوسى عن المسيح 'مدفونين معه فى المعمودية، التى فيها أقمتم أيضاً معه' (كو٢: ١٢) .

وقال نفس المعنى لأهل رومية 'أم تجهلون أننا كل من اعتمد ليسوع المسيح، اعتمدنا أيضاً لموته. فدفنا معه بالمعمودية للموت.. لأنه إن كنا قد صرنا متحدين معه بشبه موته، نصير أيضاً بقيامته' (رو٦: ٣- ٥) .

والموت هنا يعنى موت إنسائنا العتيق .

كما يقول الرسول 'عالمين هذا أن إنساننا العتيق قد صُلب معه ليبطل جسد الخطية' (رو٦: ٦) .

فى معموديتنا ننال الخلاص .

كما قال الرب 'من آمن واعتمد خلص' (مر١٦: ١٦) .

وكما قال القديس بولس الرسول "بل بمقتضى رحمته خلصنا، بغسل الميلاد الثانى وتجديد الروح القدس' (تى٣: ٥) . وكما قال القديس بطرس الرسول عن الفلك' .. الذى فيه خلص قليلون أى ثمانى أنفس بالماء، الذى مثاله يخلصنا نحن الآن أى المعمودية' (١بط٣: ٢٠، ٢١) .

والخلاص فى المعمودية ، يعنى الخلاص من جميع الخطايا قبل المعمودية. ويعنى هذا التبرير والتجديد .

الخلاص من الخطية الأصلية الجدية ، والخلاص من جميع الخطايا الفعلية قبل الخطية. والتجديد يعنى تجديد طبيعتنا (رو٦: ٤) .

ومعموديتنا ، كما يموت فيها الإنسان العتيق ، يقوم إنسان جديد على شبه المسيح .

وعن هذا قال القديس بولس الرسول 'لأن جميعكم الذين أعتمدتم للمسيح، قد لبستم المسيح' (غل٣: ٢٧) . أى لبستم ما فيه من بر ... (وهنا عمل التبرير فى المعمودية) .

بركة القديس يوحنا المعمدان تكون مع جميعنا .

وكل عام وجميعكم بخير ،،



فى هذا الكتاب

بسم الآب والابن والروح القدس

الإله الواحد آمين

تقرأ فى هذه النبذة

عن الموضوعات الآتية:

١ - تأملات فى عيد الغطاس المجيد .

٢ - تواضع الرب فى المعمودية .

٣- عظمة المعمدان

٤ - معمودية يوحنا

٥- أيقونة المعمدان.

٦ - عماده للمسيح.

٧ - (لا أنا) : اختفاء يوحنا ليظهر المسيح .

٨ - معموديتنا نحن

البابا شنوده الثالث

